١

الحياة للأموات

مجموعة قصصية

عبدالله الجادري

دار المحرر الأدبي

٢

نخاسة

لم أكن فيهم من الزاهدين ولم أسرهم يوما بضاعة وأعوذ بالله أن أكون من النخاسين لكنه الهوان ضيق المأوي وقلة الرزق وضعف الهمة والعزم وانحسار الحلم وكثرة العيال.

ولم أكن أعرف أن داخلي كل هذه المساحة الباردة تماما والتي سقطت عنها ورقة التوت الأخيرة رغم أنني لم أقرب شجرة الخلد! ولم أكن أعرف أنني لا أملك ما أدفع به عن نفسي إلا بعضا من مساحيق التجميل الرخيصة وقد فشلت في ستر عيوب القلب القبيح. فاليوم غالبت دموع الصغار ودموعي والنظرات الجديدة في عيون ثلاثتهم التي تشبه نظرات عيون الجواري وصغار العبيد وهم يغادرون بيتا أحبوا أهله واطمئنوا لهم حفظوا كل تفاصيله إلى مجهول.

فعندما حل الظلام فوق بيوت المدينة وشوارعها أضاء لي شيطان نفسي قنديلا شحيح الضوء حتى بدا الطريق بين بيتي والسوق كخط رسمه سهم مشتعل خرج عبر الظلام من قوسه إلي قلب الضحية.

في السوق أتيت رجلا لم أري بوضوح هل كان بدينا أم نحيفا؟ هل كان غزير شعر الرأس أم انحسر الشعر عن رأسه؟ هل كان أجش الصوت أم أن صوته كان رقيقا؟ لكنني أشعر أنه لابد أن يكون بدين الجسد انحسر الشعر عن رأسه ذو صوت أجش له ضحكة خبيثة متقطعة تظهر خلالها أسنانه الصفراء .

كانوا ثلاثة دقق الرجل فيهم النظر بجرأة فحصهم بيده بلا أي خجل عبث بكل تفاصيل أجسادهم بكل وقاحة ولما راقوا له أثني عليهم بتحريك رأسه من أعلي لأسفل ومن أسفل لأعلي ولم ينطق أخرج من جيب سري بين ردائه والبدن بضعا من الجنيهات ودفعها بين يدي اليمني التي أطبقت بها علي يدي اليسرى وألقيت الاثنين فوق بطني بلا اكتراث إلا أنني لم أحكم قبضتي حول جنيهاته فحملتها الريح إلى ظلام الشارع ركض هو خلف الجنيهات ولم ألتفت أنا إليه ومشيت .

عدت إلى بيتي منهكا كجندي عائد من الميدان مهزوما لا يحمل إلا بقايا ذكريات مع رفاق السلاح الذين رحلوا وتركوه عينا تبكي العين التي فقدت نعمة البصر رميت جسدي فوق أقرب مقعد من الباب فتحت ثلاثة أزرار من قميصي حتى أتمكن من تنفس هذا

الهواء الثقيل انفجرت عيوني عن دموع ساخنة لما رأيت بقايا عشاءهم الأخير الذي لم يكملوه.

كلمات زوجتي وهي تغالب دموعها أيضا ــ هون عليك أنهم ثلاثة قطط صغار ليس أكثر ــ لم تنجح في إعادة جزء مات من قلبي إلى الحياة ثانية.

(أيتها العير إنكم لسارقون)

أقسم لكم بالله ثلاثا ــ غير كاذب ــ أنه محض لص استباح لنفسه الأخضر واليابس في حياة كل من أوقعهم حظهم العاثر في طريقه. لقد كان يسطو عليهم جميعا ــ ولا يزال ــ غير مكترث بخصوصية تواريخهم أو حرمة جغرافيتهم أو قدسية عَرقهم وهم يصنعون هذه التواريخ فوق هذه الجغرافيا التي لم تكن يوما ممهدة لهذه الصناعة لولا هذا العرق.

كان صوتي هادئا جدا عندما وقفت فيهم وبينهم ولم أعتلى أية منصة وقلت ما سطرته الآن بعلي وما إن أتممت نطقي بكلماتي الأخيرة حتى ارتسم الغضب علي وجوههم وتتطاير الشرر من أعينهم وبدأت أذني تسمع منهم همسا تحول إلى (تأتأة وسأسأة) ثم صياحا كان مصحوبا بإشارات لفظية تُنطق ولا تُكتب لا لعجز اللغة عن كتابتها بل لاستحيائها من كتابتها.

طلب منه المحبون له وقد كانوا بين :ــ

حواري لم ينكره لأنه فهم خطأ أنه المسيح.

صديق استحي منه لطول عشرتهما معا .

فتاة ليل منحها في ليلة مقمرة عشرة جنيهات ولم يتواطأ لدعوة أمه ألا يقع في معصية أو لعجزة عن تدبير مكان يصلح للقاء أو لألم أصاب عموده الفقري فجأة .

جلاد في يوم عطلة خرج بأطفاله إلى حديقة الحيوان كي يعتلوا ظهر الحمار بعد أن رفض بالأمس أن يعتلوا ظهره رغم أن أمهم تعتلي هذا الظهر أمامهم كل ليلة حتى مطلع الفجر .

مرشح سابق في الانتخابات كان مديرا إعلاميا لحملته الدعائية .

شحاذ كان يمنحه كل ليله ما يتبقى من سهرتهم (قطع من الخيار وبعضا من الترمس وشرائح من الجبن الرومي) .

وممثل فاشل كان قد استأجره ليصفق له كلما ظهر على خشبة المسرح كي يتبعه الجمهور تصفيقا وتهليلا .

وقائد عسكري كان قد نصحه أن يطلق شاربه حتى يضخم في أسماع الناس حديثه .

جميعهم طلبوا منهم ردا قويا علي حتى وإن لم يكن مناسبا أو في جوهر وصلب الأمر .

كان متكأ علي شجيرة صغيرة كُسر ساقها لثقل وزنه قام عنها ببطء شديد حتى وقف . . . نظر في وجوههم ثم طأطأ رأسه في تواضع لزج وقال : (ما هكذا ترد الإبل) أتوني منصة أعتليها فلا تضيع كلماتي أدراج الرياح هاهنا بينكم .

ولما فعلوا اعتلى المنصة وخطب فيهم قائلا :

ما ضير المحارب القديم ــ حتى لو كان (عمي) ــ في أن نصره استحال إلي نص سردي من ثلاثة عشر صفحة من القطع الصغير ألم يحوله قائده العسكري الذي صرخ يومها (هجووووووووم) ثم جري إلي خيمته المحصنة ينتظر الأنباء ولما جاءه النبأ بالنصر حوله إلى وسام ذهبي ثبته (بدبوس ذهبي) فوق صدر حلته العسكرية فلم أكن بنصره أول التجار .

ما ضير بائعة الفجل ــــ أم سمسم ــــ في أن رحلتها إلى الله في مكة المكرمة والمدينة المنورة تحولت إلى قصيدة من الشعر العربي الموزون والمقفى وصلت إلى بضعا وأربعين بيتا ألم تتناول طعام الغذاء مرتين في بيتي بالمدينة المنورة .

ما ضير حبيبتي الأولي التي ذكرت اسمها تصريحا في مسرحيتي الشعرية الثانية والتي فازت بالمركز الرابع مكرر في واحده من المسابقات المسرحية الهامة . . . ماذا حدث؟ طلقها زوجها وما الضير في هذا جميعكم تعلمون أنها لم تكن تطيقه ولا ترغب في مواصلة العيش معه لولا الصغار .

ما ضير أم البنين والبنات التي كتبت قصة كفاحها في رواية أطول وأجمل من (الشهد والدموع وليالي الحلمية) ثم إن هذه الرواية حتى الآن لم تتحول إلى دراما تليفزيونيه حتى أجزل لها العطاء .

ما ضير زوج خالتي الذي حدثتكم بقصته وكيف أنه حدد موعد ومكان وتفاصيل وفاته قبل الوفاة بثلاث سنوات كاملة أنتم الذين صفقتم لي وذكرتم جميل طرحي وعمق عرضي وعبقرية تناولي ونسيتموه وهو ملهم العمل .

ما ضير العجوز صاحب المكتبة القديمة في حواري منطقة الأزهر التي حولها ابنه إلى مخزن للأدوات الصحية ما الضير في أنني تاجرت بوعيه وعشقه للتاريخ وربحت مالا أنفقت بعضه في شراء

كثيرا من الكتب التي كانت أغلفتها من الجلد البني والقطيفة الحمراء الفاخرة.

ما ضير رفاق الكلمة (شلبي الغايش ـــ السيد الجزايرلي ـــ ناصر دويدار ـــ عبد الهادي زيدان ـــ وليد علاء الدين ـــ عبده الزراع ـــ إبراهيم منصور ـــ عبد الناصر جاد ـــ محمد حمد ـــ ناصر شلبي) ما الضير في أنني دائما أزرع أسمائهم في نصوصي كي تكتسب النصوص وجاهة لم يقل الزراع في أواخر تسعينات القرن الماضي في قصيدته رزاز الليل أباريق مدهوشة (وفزعني صوت براهيم خطاب الجاي من آخر الشارع / بيقولي : يا عبده / مقرتش قصة عبد الناصر جاد) ولم تتبرموا . . . ثم إن اسمي أمامهم فليزرعوه أينما شاءوا إن كان اسمي سيأتي لهم بالخير.

دفع بدفاعه وأتم خطابه فلما بهت الذي كفر وبهت أيضا الذي آمن أشار علينا أحدهم بإقامة الميزان (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) [1] فأقمناه وضعنا في كفته اليمني حرب عمي وفقر أم سمسم وبيت حبيبتي الأولي وكفاح أم البنين والبنات ويقين

---

[1] الآية رقم ٩ من سورة الرحـ .

زوج خالتي بالله ووعـي وعشـق العجـوز للتـاريخ وأسمـاء رفـاق الكلمة ووضعنا في كفته اليسرى (سفر الخروج إلي صفر المسافة).

فساد صمت كصمت القبور رهيب بين الحاضرين وقبل انحيـاز ميزان العدل لإحدى الكفتين أدار كلا منا أنـا وهـو ظهـره للمنصـة والميزان وللآن لا يعرف غيركم لأي جهة كان انحياز الميزان.

١١

عاشق في حضرة الوجد

أوقفني سيدي في موقف غير الذي سعت إليه أقدامي غير الذي ابتغي. أوقفني في مكان لا أرض فيه تطئها أقدامي ومنها أرتقي . . ولا ماء يحملني ماشيا ولا سماء يطير لي فيها جسد فأصير مباركا وتصير مباركة من سكنتها أو سكنتني.

أوقفني في زمان لا تاريخ فيه أو ماضي للعشق يشفع لي . . . ولا حاضر يقلدني عمامة من الوجد فيصير لي في الهوي اتباع ومريدون . . . ولا غد آت بعد ورد ليل يُبتغي بعده حبيب وسيد غائب . أوقفني سيدي ثم تركني ومشي !

تلفت حولي وجدت صُحبتي في الموقف غير صُحبتي التي كانت في المسعي . . . فصحبتي في المسعي نمت لهم أجنحة وطاروا إلي حيث هن وتوحدوا معهن جميعهم إلا أنا . . جميعهن إلاهي . . . وما كان الوصل معها والتوحد فيها حلما بنزهة لمشتاق إلي عبور الأفاق كان الوصل معها والتوحد فيها سكنا . . . وما كان سعي الروح والبدن إليها لأحيا معها كان سعي الروح والبدن إليها لأحيا بها . . لأحيا فيها.

وعندما ثقــُل علي موقفي ــ واستبطئت مـن سـيدي التجلـي وكنت دون المكاشفة وكان الماء حتي الماء في عيني طلسم ـــ عنـدها تجاسرت وشكوت . . . حاججتـه بصـلاة رباعيـة أديتهـا بخشـوع وخضوع كمـا ينبغـي لهـا في انتظـار القبـول . . حاججتـه بصـوم تكبدت مشقته في انتظار الرضا . . حاججته بماء زمزم وقـد شـربته لقاء المحبة وبأستار البيت المعمور وقد جـرت عليهـا دمـوع الفقـد الأول في انتظار الإجابة .

فقال سيدي بعد جهد مني وصوت أزاح الستائر وفض بكـارة الستر وقطع الدرب علي منقطع للسير عليه :

شغلك الوصل بالصلاة عن الصلاة ذاتها فأديتها ثلاثية والرغبة والمرغوب في وصله محبة وعشق والوصل ماهية وكيف لا يسـكنون إلا قمة الأمر وأعـلاه يسـكنون الركعـة الرابعـة ! . . . وصـيامك الذي تكبدت مشقته رُد عليك فلم يكن أكثر من صيام جسد ومـاء زمزم التي شربتها لقاء المحبة وأسـتار البيـت المعمـور الـتي جـرت عليها دموعك . . . . . لماذا بحت لهم بالسر؟ ولماذا بحن به ؟

هي أكبر من حـدود الجسـد ووصـفه وأوصـافه وصـفاته هـي مطلق أسطورة سماء خلف الحجب وأنت بشـر مـن أديـم الأرض

جاء للأرض دون إذن منه ويرحل عنها دون إذن منه . . خطوك كسيح وذراعك قصير . . عينيك لا تبصر خلف الأشياء وأذنيك لا تسمع بعد الأصوات . . لن تنعم بحلولها فيك أو حلولك فيها دون وعد منه ومنه . . ولن تدركها دون تجلي ولن تمنح مكاشفتها إلا إذا تصبرت فصبرت . . تعقَّلت فعقلت . . تعلمت فعلمت . . استمعت فسمعت . . تعرفت فعرفت حتي تنال الرضا فتكون في الأعلى دون ان ترتفع قريبا دون أن تقترب موصولا قبل أن تصل موشوما بوشمها دون وخز للإبر .

والنعم أنواع وأصناف وأشكال منها المتاح لي ولك امدد يديك يملئها لك حنطة أو ذهب أيهما سعت إليه قدماك وشئت . . . ومنها نعم لا تدرك بسعي ولا يفلح في طلبها علم الحساب تبلغها بالجهاد دون مطالبة . بالسعي دون طمع في الوصول . . . ونعم تدرك بالوعد فلا تسأل عن سببها وعلتها وافرح دون زهو لو جاءتك واحزن دون إسراف لو خاصمتك .

وكأن يا سيدي الصفات كأحكام السماء قاطعة ! وكأنه لا مسالك للترقي والعلي ! وكأنه لا عبد علي الماء مشي ولا في الهواء طار ! وكأن دناءة الشأن لا يرفعها علو المبتغى ! سيدي ترفق بي

وتجاوز ولا تبالي واحد هو الموت علي عتابتها في شمس الظهيرة أو في ظلال شجر البعاد الذي لا ظل له . ارفعني بـ كن ولتكن دموعي وقد أطفئت بها نار تستعر واشعلت بها بحار من ثلج شافع لي وثمنا للترقي .

فقال : لم تبالي بنفسك وأنا منك كل إلا قليل فاليوم لن أبالي بك وأنت في الملكوت ضئيل قليل كن كما تشاء وتوحد مع من تشاء واستكشف واطلب تجلي من تشاء متي تشاء وأين تشاء عليك وحدك ستدور الدوائر ولا تلومن إلا نفسك .

تلقفت من سيدي الإذن بالمأمول ثم أغلقت الأذان عن سماع المحذور . . . وتحولت إلي ريح فوق البحار حملت الماء سحابا في أحشائي خلطته بأخضر القلب وأنزلته بقدر ماء مطر أعنابا وشجرا شموسا وقمرا . . . فوق الصحاري كنت مهرا جموحا يعدو ولا تلمس أقدامه أرضا يعدو إليها من شروق الشمس لغروبها ومن غروبها للشروق الجديد حتى جاءتني البشارة بالوصول إلي مدينتها . . .

مدينة من نور لا تظهر لأحد من بعيد حتي يراها من البعد صغيرة ولا يأتيها من علِي حتى لا يعتليها . طويت الأرض طيا

تركت خلفي البنين والبنـات . . الوديـان والانهـار . . السـواحل والبحـار . . الغابـات والاشـجار حتـى إذا جـاوزت مـن الكـون مساحات الأمان وصرت وحدي لا إنس معـي ولا جـان ولاحـت مني وبدت رغبة الوصول ولم تنقطع رغم وحشة الطريق والاعتقاد ببعد المقصد والقصيد وفجأة إذا بالوحدة تنشق عن صحبة والظـلام ينشق عن ضياء والخوف ينشق عن أمان والضيق ينشـق عـن بـراح . . . ظهرت المدينة فجأة بكامل ضيائها ونورهـا وجمالهـا وزينتهـا وبهاءها . . . كل دروبها تـؤدي إلـي قلبهـا ويزيـد الضـوء كلمـا توغلت في أي درب حتي لا أقوي علي الرؤية فأخاف وأرجـع مـن حيث بدأت لأبدأ من جديد علي درب جديـد بغيـة الوصـول إلـي قلب المدينة فقلبي بقلب المدينة كان معلق وخطوي لم يكـن بقـرار أو باختيار فقد كنت مدفوعا ومسيرا ومجبرا ومرغما ولا ادري العلة والسبب!

حتي جاءني صوتها من قلب المدينة . . صوت يشي بها ويذيع في العالمين سر جمالها لقد أنبأ بمـا أعـرف عنهـا وأكثـر . . . طفولـة عمر في جسد امرأة . . . من الشرق ريحها من الغـرب رسمهـا . . عيون كبحر وفم كثغر تحج إليه المراكب . . شعر طويل كليل جميل

يمر بعاشق موصول وراضي . . . بياض الثلج وحمرة النار . . . وهج الشمس وضي القمر . . . أغنية فرح وصلاة شكر . . . دموع مفارق وابتسامة ملاقي . . . حلوى لطفل حلم لبنت درب لراحل وعائد .

جاءني صوتها وهي تقول : طرت كثيرا لكنك لم تتحول إلي طائر . . . عدوت جريت طويت الفيافي لكنك ابدا لم تكن المهر الجموح . . . أتيت بمشيئتك إلي هنا بعد شغلك وانشغالك بالمأمول عن المحظور بالمرغوب فيه عن المسموح به . . . أتعلم أين أنت الأن؟ أنت في واقعي حيث لا موت لي فقط حياة وعشق سفر وعودة سباحة في الفضاء وسير علي الماء و . . . . . و . . . . . و . . . . . ولكنك في حلمك لا حياة لك فصفاتك لن تحمل أحلامك وأحلامك تتخطي أوصافك وطريقك للأمام موصود وللعودة موصول .

صوتها كالنور للفراشات وها أنا أتقدم النور يزداد ويغمرني أصبحت لا أبصر خلف الاشياء لكني أسمع إذا أسمع ومازالت أتقدم نغمات الكون الطرية تزداد وتغمرني أصبحت لا أسمع بعد الأصوات لكني أشعر إذا أشعر ومازالت أتقدم حتي سكرت دون

خمره حتي طربت دون معازف حـتي سمعـت التراتيـل دون قـارئ وكتاب تقدمت حتي تجاوزت كل الحجب وصلت المعيه . . . .

وهناك كانت رجفة ثم رجفة ثم رجفة حتى استوي كـل علـي عوده وكان ما كان ودام (امرأة وأنا تمثال لعاشق في حضرتها يسـكر دون خمره يطرب دون معازف ويسمع التراتيل دون قارئ وكتاب)

١٨

أرفض غيابك

لا أعرف لماذا صحوت هذا الصباح من النوم بكل هذا الإرهاق ولا أعرف سر هذا الرائحة التي تملئ أنفي منذ أن صحوت أنها رائحة الحزن فإن له رائحة لا تتشابه في أنفي مع غيرها من الروائح أبدا . . . وما إن خرجت من غرفتي حتي وجدتهن متشحات بالسواد يحتلون كل مساحة البيت قالت لي إحداهن وقد لاحظت علامات التعب والأرق الذي اشعر به : ألم أقل لك سترتاح أكثر لو نمت في غرفتك نظرت خلفي وتأكدت أنني قد خرجت من غرفتي فعلا ولكني لم أجد طاقة عندي للتوضيح أو طلب الإيضاح فسكت! . . . عدت إلى غرفتي واستبدلت الملابس التي أرتديها التي لم تكن ملابس نوم ولم تكن ملابسي أساسا استبدلتها بملابس خروج وعندما خرجت من الغرفة قالت لي نفس السيدة لماذا لا ترتدي بعضا من ملابسك انت ؟! ولم أجد للمرة الثانية طاقة عندي للتوضيح أو طلب الإيضاح فسكت وخرجت من البيت دون حتى أن ألتفت إليها .

بمجموعة كبيرة من القرارات العشوائية وصلت إلي هذا الشارع بدأت هذه القرارات بخروجي من البيت دون هدف وبعد أن تجاوزت الميدان انعطفت يمينا علي غير هدي وجلست علي أول مقهي صادفته رغم أنني لست من رواد المقاهي الغريب أن (الجرسون) تبسم في وجهي كأنه يعرفني جيدا رغم يقيني أنها ليست أكثر من زيارة عشوائية والأغرب أنه صاح عندما رآني وقبل أن أتكلم وقال : (عندك واحد قهوة سادة للأستاذ إبراهيم) والأشد غرابة أنني لم أوضح له أنني لا أحب القهوة خاصة (السادة) وأن إسمي ليس إبراهيم ! فقد وجدتني لا طاقة عندي للتوضيح أو طلب الإيضاح فسكت!

كان المارة ينظرون إلي نظرات غريبة ويتغامزون ويضحكون بشكل استدعي انتباهي فصرت أنظر أنا أيضا إلي نفسي لعلي أجد سببا لهذه النظرات والضحكات وهذا التغامز . لحظات ووضع (الجرسون) أمامي علي الطاولة فنجان القهوة وهو يضحك ويقول : جميلة جدا ملابسك هذا الصباح يا أستاذ . . . ومشي قبل أن يسمع سؤالي له : أليست هي ملابس كل يوم ؟!

وبينما أنا أحاول شرب فنجان القهوة (السادة) لمحتها بالجهة المقابلة من الشارع تجتاز زحام الناس والسيارات إلي حيث أجلس فرحت جدا لرؤيتها خاصة أننا لم نتقابل من أكثر من أسبوعين وسألت نفسي : تري هل كان بيننا موعد وجئت أنا للمكان والزمان الصحيحين مصادفة ؟ أم أنه لا موعد بيننا وهي التي جاءت إلي هذا المكان مصادفة ؟ لا بأس المهم أنها قادمة نحوي الأن . . . لكن لماذا تمشي ببطء هكذا كأنه لا شوق في قلبها لرؤيتي ولماذا كل هذا الحزن الظاهر علي ملامحها . . . رغم ذلك كانت كلما اقتربت مني تزداد مساحة الابتسامة وعلامات البشر علي وجهي بينما هي تنظر يمناها ويسارها ثم تنظر إلي في دهشة . . . وعندما أصبحت علي مقربة مني وقفت ومددت يدي لأصافحها لكنها صرخت في وجهي بشدة وسألتني من أنت ؟ ورغم المفاجأة إلا أنه كان لدي هذه المرة رغبة رهيبة للإيضاح وطلب التوضيح ! لكن المارة لم يمنحونني أي فرصة للكلام معها وسؤالها ولم ينقذني من أيديهم إلا رجل الشرطة الذي صفعني علي وجهي واقتادني إلي قسم الشرطة وهناك جاءت أمي التي لا أعرف لماذا قالت للضابط أنها زوجتي وأن ابننا رامي الذي كان صديقي الوحيد وكنت صديقه الوحيد توفي من أسبوعين .

٢١

الموت نزولا على رغبة الجمع

هذا الجمع أعرفه جيدا لا يجتمع إلا في مصيبة كبيرة (يا رب سلم) سأقوم الآن وأرحب بهم وأتحسس الخبر .

ما هذا؟ أحاول تحريك جسمي لأنزل عن السرير ولكني لا أستطيع ! أطرافي ممددة علي امتداد جسمي بشكل ينبأ أن هذا الوضع تم بفعل فاعل . إذا أصيح مناديا أحدهم كي يساعدني : يا . . . . . لم أسمع صوتي أحاول أن أصيح بصوت أعلي : يا . . . . . يا إلهي لم أسمع صوتي أيضا ليس أمامي إلا أن أنتظر أن يدخل غرفتي أحدهم عندما يستبطئون خروجي لهم . لكن من الواضح أن أحدهم لا يستبطئ أي أمر بالمرة فمن خلال فتحة الباب الصغيرة جدا ــ حيث يبدو أن أحدهم حاول غلقه لكن دون عناية ــ من خلال هذه الفتحة ألاحظ أنهم يتحركون بهدوء لا ينظر أي منهم إلي باب الغرفة التي أستلقي أنا علي السرير في منتصفها وكأن غيابي عن جمعهم قضية حتمية محسومة وقد اتفقوا جميعا على تقبلها .

تمر الدقائق وأنا علي هذه الحالة كأنها سنوات حاولت أن أتسلي بمتابعة تفاصيل الغرفة التي لاحظت أنه تم رفع بعض قطع الأثاث منها وصارت خالية إلا من سريرى ودولاب الملابس الكبير أما الطاولات الصغيرة والكراسي المبعثرة في الزوايا والسجادة التي تغطي مساحة كبيرة من أرضية الغرفة لم تعد هذه الأشياء موجودة وفجأة (يا فرج الله) انفتح باب الغرفة علي مصراعيه ودخل أبني الكبير ومعه ــ يا ستار ــ عم سعد وهما يحملان سرير خشبي بلا فراش وإناء كبير مملوء بالماء ولفافات كبيرة نسبيا من القماش الأبيض وكيس من القطن الطبي و . . . . . و . . . . . و . . . . . .

عندها كنت على يقين أن أي صوت سيخرج من فمي سيكون مسموعا حاولت غير أن صوتي لم يخرج . قلت لنفسي إن أي حركة من أصابع قدمي أو يدي ستلفت انتباههما ويدركان أنني لست نائما وعندما حركت أصابعي غطي أبني كامل جسدي (بملائة) بيضاء حالت بينهم وبين رؤية أصابعي وهي تتحرك ثم أنني لم أدرك هل تحركت أصابعي فعلا!

لم يبقي أمامي إلا عيناي أحاول تحريكهما بشكل يستدعي الانتباه وعند تنفيذي لهذه الفكرة غطي ابني وجهي بجزء من (الملائة) البيضاء كان مطويا فوق صدري والآن لا سبيل لمواجهة قرارهم باعتباري نائما لا سبيل لإقناعهم أنني مستيقظ لا سبيل لإقناعهم أنني حي .

ولأنني أعلم علم اليقين ماذا سيحدث معي الآن وماذا سيكون من الجمع ــ فلقد كنت معهم مرات ومرات عديدة ـــ وأعرف كيف أنهم لا يجتمعون إلا في مصيبة ولن يقبلوا فكرة عودتي أو يستسلمون لها أبدا فلا مفر لا مفر أمامي من الاستسلام لفكرتهم أنا ميت . . . . . أنا مت نزولا على رغبة الجمع .

٢٤

البلياتشو

قدره برجان مشدود بينهما حبل طريق يمشيه مرة بقدمين حافيتين ومرة بقدمين حافيتين ومكبلتين. مرة بعيون مفتوحة تبصر بعد الأرض عن الأقدام ومرة بعيون معصوبة فلا يعرف موضع الخطوة التالية مرة بكامل ملابسه ومرة عاري البدن لا يستره إلا سرواله وعرق يتصبب من كامل الجسد ومرة علي كأهله أحمال وأحمال.

قدره صراخ يحسبه السامع نشوي فيطرب ويطلب المزيد وهو ألم ورثه كابر عن كابر ألمه يسبق دائما خطوه بخطوة أو بخطوتين.

قدره دموع ترسم فوق الألوان علي وجهه دربا سرمديا ونحسبها (مكياج) ونفترض في المشهد نقصانا إن لم نجدها.

لا يرى في الأمس سوى أبا كان قدره برجين مشدود بينهما حبل وصراخ يحسبه السامع نشوي ودموع نحسبها (مكياج) ولا يرى في الغد سوى ابنا سيصبح قدره برجين مشدود بينهما حبل وصراخ يحسبه السامع نشوى ودموع نحسبها (مكياج) ولا يرى في

اليوم سوى نفسه حرف عطف بين القدمين الحافيتين والقدمين الحافيتين المكبلتين وجسر لعبور القدر .

جالسته بين فقرة وأخري حدثته عن إرادة التغيير وتغيير الإرادة ــ حدثته عن غد يولد من رحم اليوم وغد تبرأ من اليوم ونما قويا مختلفا خارج الرحم ــ حدثته عن رصيف واسع وضحكات عالية وعيون بلا دموع .

فجأة سمعت المنادي يقول (نمرتك بدأت يا فنان) بسرعة تحسست وجهي وطالعته في المرآة وتأكدت من وجود الألوان ولم أحفل بدرب الدمع فوقها .

٢٦

جفت مواويل النخيل

مفتتح :

يا لي من سقيم يستقيم

علي أديم من ورق

أو ذكريات من أرق

شلبي الغايش

كانت دموع صاحبنا ــ كعاشق ــ أكبر من مناديل المعشوقة ومناديل المعشوقة كانت كثيرا ما تفجر منها الدم علي صفحة وجهه فقد كانت مناديلها خشنة جدا وقاسية للغاية . . . ومعشوقته لم تكن أبدا في أي يوم عاشقة! صنعها العاشق من ضلع بصدره لم يكن أعوج وكان العاشق في أشد الاحتياج له لكنه لم يبخل به . وعندما استوت امرأة وأميرة نظرت إلى غرف روحه الضيقة ورأت أنها ضيقة ولم تري أنه أعدها لها وحدها ونظرت إلي تجاعيد الزمن فوق وجهه ولم تدرك أن الزمن ما كان يقدر على رسم هذه

الخطوط بهذه الحدة لو كانت معه ونظرت إلي تاريخه الذي لا يذكره أحد ونسيت أن هذا التاريخ كان فقط تأسيسا لمملكتها مملكتها هي . نظرت لكل هذه التفاصيل من فوق كتفيها ومشت .

كان غضب صاحبنا ــ كإنسان ــ أعمق من الحزن وحزنه أعم من الفضاء وفضائه هو لم يكن رحبا بما فيه الكفاية حتى أنه ضاق عليه عندما بحث فيه عن مكان للصغار وعندما شكا مقتله بالمجان علي قارعة الطريق حاججه القاتل بأنه هو الذي لم يفر منه عندما رفع في وجهه السلاح لذا لم يكن هناك مفر أمام القاتل من أن يقتله فقتله ورأي القاضي أن دفاع القاتل حسن فرد إليه حريته وأمر المقتول أن يكمل إجراءات موته بانهزام دون إزعاج للسلطات!

كان صاحبنا ــ كأديب ــ لا يتريض فوق الصفحات البيضاء وهو يمتطي صهوة قلمه وفي يديه قفازين من حرير فهو لم يكتب الشعر كما يتنفس الإنسان كما كتبه (الغايش) ولم يعتصم بالطب ــ بقرار ــ من صعلكة بدايات الأدباء في مدن النور والنار كما فعلها (جاد) ولم يمنح الأدب ويمنحه الأدب عشرين ديوانا من الشعر كما فعلها (الزراع) ولم يقتني كتابا ليزين به جدران غرفته أو ليقرأه وقت السفر بالقطار ليعلن في محطة الوصول أمام كاميرات

الفضائيات النفطية ــ كببغاء ــ عما يحتويه الكتاب بين دفتيه . . . فرحلته ككاتب فوق الورق كانت أرق يأخذ النص من أحشائه قدر من يمنحه النص تصفيقا حادا من يدي (الزهراء) وزيادة ورحلته كقارئ للورق كانت محاولة لتجاوز صحراء الربع الخالي دون دابة أو زاد بحثا عن حليب لأطفال العراق والشام وفلسطين والصومال و . . . . . و . . . . و . . . . . .

والآن لا معشوقه مناديلها ناعمة ولا ميزان عدل في الميدان ولا مجد تدور له عجلات المطابع لا شيء سواه وحفنة من وجع البحيرة (للجزايرلي)

٢٩

على ما يبدو لم أكن هنا !

كعاداتي القديمة ــ التي لم تتغير رغم تغير الحال والمحل ــ أمضيت اليوم بعضا من ساعات الصباح في التجوال بين المحلات التي تبيع التحف و(الأنتيكات) القديمة . . . كم أعشق غبار الماضي في الزوايا والأركان وفوق المعروضات في هذه المحلات كم أعشقه عندما لا يكون كثيفا فتضيع معه كل ملامح الزمن الجميل وعندما لا يكون خفيفا فتفقد الأشياء عمق انتمائها لزمانها الحقيقي وأيامها البكر .

اليوم في واحد من هذه المحلات وجدت (جرامفون) مسحت الغبار بأصبعي عن قطعة معدنية فوقه وكم كنت سعيدا عندما بدأت تظهر حروف وكلمات واضحة عن تاريخ الصنع واسم الصانع وبلدته كم كان مثيرا ومدهشا تخيلي لرحلة هذا (الجراموفون) الذي أتى إلينا هاهنا من وراء البحر الكبير .

حملته بين يدي وخرجت دون أن يطالبني أحد من العاملين بالمحل بثمنه كما تقتضي العادة ومنطق الأشياء رغم أن جميعهم كان ينظرون إلينا أنا و(الجراموفون) بدهشة غريبة لا أعرف سببها

ونحن نخرج من المحل معا وقد ظلوا جلوسا لم يحرك أحد منهم ساكنا .

في المنزل اخترت (للجراموفون) طاولة قديمة الطراز ملائمة له ومتناغمة معه تماما . . . وضعته فوق الطاولة التي وضعتها تحت صورتي التي تتوسط الجدار الشرقي في بهو المنزل . . . وضعت داخله اسطوانة لا أعرف من أين جاءتني؟ وما إن دارت الاسطوانة وتعالي صوت موسيقاها حتى تجمع حول نوافذ المنزل المفتوحة علي مصراعيها كل ما في السماء من طيور . الموسيقي كانت تصاعد سريعا في السماء وكأنها كُتبت للوداع والرحيل لم تكن يوما للقاء والإقامة .

ناديتها فجاءت مسرعة كأنها جاءت من صوتي وكأن صوتي صار بعضا من صوت (ابن مريم) أتي بها بالفعل كن . . . لمعت عينيها لما وقعت نظراتها علي (الجراموفون) طربت جدا لموسيقاه وبدت كأنها تستعد للرحيل مع نغمات الوداع رغم أنني لم أكن معها من الراحلين .

قولت لها أو قالت لي هي : هيا نرقص معا . . . لكنا ما إن بدأنا نرقص حتى اضطربت خطواتنا نظرنا إلى الأرض وقد ضاقت

علينا بما رحبت وأصبحت لا تتسع إلا لقدمين . . . قلت وقالت : هذه موسيقي وداع لا يرقص علي نغماتها إلا جسد واحد . . . قلت وقالت : فلنكن كما تريد الموسيقي جسدا واحدا جفف المقيم فينا دمعا سكبه علي الراحل وأصبحنا كما تريد الموسيقي جسدا واحدا .

مر من الزمن ما لم أدركه طولا أو قصرا ــ ونحن نرقص جسدا واحدا كما أرادت الموسيقي ــ حتى فُتِح باب المنزل وتجاوزته فتياتي الصغيرات يتشحن سوادا غريبا إنه كسواد الحداد يعلو وجوههن غبار ليس كالغبار الذي أعشقه إنه كغبار المسالك المهجورة والدروب الوعرة . . . لم ينظروا إلينا إنهن لا يروننا . . . لم يلتفتوا إلى (الجراموفون) إنهن لا يسمعن موسيقي الوداع وهي تصدر منه . . . ألقت كل واحدة منهن جسدها الذابل علي غير عادته علي أقرب مقعد . . . مسحت كل واحدة منهن عن وجهها دموعا حفرت في صفحة الوجه أخدودا كأنها تجري منذ دهر بعيد بعيد . . . لحظات وتحاملت أصغرهن علي نفسها ووقفت فوق مقعد بجوار الطاولة التي يعلوها (الجراموفون) تحت صورتي التي تتوسط الحائط الشرقي في بهو المنزل وأخرجت من جيب معطفها

شريطا أسود اللون ووضعته مائل أعلي صورتي . . . ثم انفجـرت وانفجرن جميعهن في بكاء شديد . .

٣٣

لست إلها أيها العشق

لهذه القصة في المكان والزمان ألف بداية وبداية وليس لها إلا نهاية واحدة أعتقد أنها ستتضح مع السطر الأخير. ولا يتطلب اختيار مكان لأحداثها أو زمن لبدايتها أي مهارة أو عبقرية ولا عمق واتساع في زاويا الرؤيا لا يتطلب هذا الاختيار تدخين سيجارة واحدة من علبة التبغ التي أخفيها داخل حذائي عند دخولي إلى البيت حتى لا تراها زوجتي ولا يتطلب تعريض حياتي للخطر بشرب فنجان من القهوة كما نصحني الطبيب. لذلك سأختار بشكل محايد تماما لحظة أن قرر التطوع ضمن صفوف الجيش والمشاركة في الحرب الدائرة سأختار هذه اللحظة لبداية القصة. ولن أحدد مكان أحداث القصة ولا زمانها بدقة ما لم تستدعي الضرورة ذلك فالمكان والزمان لن يغيرا طبيعة أحداث قصتنا بقي التأكيد علي أمر هام للغاية أن هذه القصة ليست قصة شخوصها قدر كونها قصتنا جميعا لكن الواحد منا لن يدرك ذلك ما لم يكن هو الأخر.

المهم أنه عندما قرر التطوع ضمن صفوف الجيش والمشاركة في الحرب الدائرة لم يكن قد مر علي رؤيته لها إلا أيام قليلة جدا عندما كانا يسيران في واحد من أكثر شوارع المدينة ازدحاما بالناس الذين يجيئون إلي هذا الشارع من كل حدب وصوب. ولعلك تدرك أنه في الزحام لا يحتاج وجه العابر بجوارك أو المقابل لك إلا نظرة واحدة حتى تحدد مكانه فلا تصطدم به أو تضطرب خطواتك وتتعثر. إلا وجهه إلا وجهها فلقد نظر إليها ونظرت إليه ثانية وثالثة ورابعة حتى غاب عنهما كل الوجود ولم يعد يرى أي منهما إلا الأخر ولم يعد يشعر أي منهما بألم اصطدام المارة بجسده عندما اضطربت وتعثرت خطواتهما لما وقف كل منهما قبالة الأخر رافضا دفع المارة له بعيدا عن اندهاشه واختياره.

انتحيا جانب الطريق والتقطا أنفاسهما وقبل أن يفتح أحدهما شفتيه بكلمة واحدة أحكم قبضته حول معصمهما ومشيا معا حتى أتيا المقهى الكبير فجلسا فيه. هناك استكملا حديثا وجداه ملقي علي الطاولة القديمة التي جلسا إليها ــ تلك الطاولة التي كان لونها فيما مضي بنيا وبمرور الزمن أصبح لونها أسود ــ استكملا الحديث

رغم أنهما لا يعرفان أصحابه الأصليين ولا يعرفان لماذا تركوه ملقي هكذا ولم يكملوه.

أثناء جلوسهما حاولت أن تعيد بأصابعها تصفيف شعرها بشكل مختلف ــ كي تشبه مطربة كانت السماء تمطر عليهم صورها خلال هذه الأيام ــ لكنه أمسك بيدها وقال لها: دعيني أواصل اندهاشي بتطابق صورتك مع صورة طفلة وجدتها داخل قلبي ولا أعرف متى دخلت إليه. وحاول تعديل رابطة عنقه وإظهار المنديل الصغير بالجيب العلوي في (جاكيت) حلته لكنها قالت له لا تفعل حتى أواصل اندهاشي بتطابق صورتك مع صورة طفل وجدتها داخل قلبي ولا أعرف متى دخلت إليه.

شربا معا مشروب المحبين عصير الليمون بعد إضافة بعضا من ورق النعناع إليه أو ربما شربا شيئا أخر.

جلسا معا حتى همس أحد عمال المقهى في أذنيه وقال له: الوقت تأخر ونريد من فضلك غلق المحل أو ربما تركا المقهى بعد ساعة واحدة.

المقهى كان يضج بالزبائن أم أنهما كانا رواده الوحيدين في هذا الوقت. . . . . هذه التفاصيل وإن كان لابد من

وجودها إلا أنني سأدعها لكم هذه المرة حتى يضع كلا منا نفسه مكان الأخر فهذه القصة كما اتفقنا ليست قصة شخوصها قدر كونها قصتنا جميعا والواحد منا لن يدرك ذلك ما لم يكن هو الأخر أو يكتب هو هذه القصة بنفسه. ثم أن هذه التفاصيل لن تضيف جديدا. فالمهم أن هذا اللقاء كان لقائهما الأول والأهم أن قصتهما معا قد بدأت.

وفي اللقاء الثاني أعلمها بقراره بالتطوع في الجيش للمشاركة في الحرب الدائرة. لم تندهش حزنا ولم يبدو على وجهها علامات المفاجأة فالحزن كان يبدو أنه مطبوع بداخلها وعندها منه الكثير فهو دائما مرسوما في عينيها. قالت كمن تؤدي مشهدا مسرحيا تدربت عليه سنوات وسنوات: طر كما يحلو لك أما أنا فلقد عرفت من زمن أن الفراشات حظ نار المدفأة ثم جرت من عيونها دموعا كانت تدخرها لهذا اليوم دون أن تتيقن من أنها ستمر بهذا اليوم... كانت تدخرها منذ مولدها.

في لقائهما الثالث جاءها بملابس عسكرية قبل موعد سفره ببضع من ساعة كان اللقاء مكررا جدا فتي حليق شعر الرأس يشبه في هيئته بزيه العسكري كل الجنود في كل الأرض وفتاه شاحبة

الوجه تبكي لفراق حبيبها ككل الفتيات في جميع محطات القطارات. ألم أقل لكم أنها قصتنا جميعا وليست قصة شخوصها فقط!

وفي ساحة النزال بطول خط المواجهة كانت وقفته بين الخط الفاصل بين الحياة والموت بلا أي خوف لكن أحدا لم يحدثنا عن عدالة هذه الوقفة ومكانها من الحق.

أعرف أن التفاصيل المجهولة أصبحت كثيرة جدا وربما ستصير أكثر لكن علينا جميعا أن نثق في أننا قد لا نكتب دائما كل التفاصيل قدر ما تكتبنا التفاصيل المهمة وتكتب نفسها كما كتبت الطاولة التي جلسا إليها بالمقهى تفاصيل لونها الذي كان فيما مضي بنيا ثم أصبح أسودا كناية عن مرور الزمن.

بعد أيام قليلة جدا صدقت نبوءة حبيبته التي كانت تقرأ في كتاب الرمل الذي وافق المسطر فيه قدره في لوحه المحفوظ فلقد حظيت نار المدفأة بفراشتها عندما أصيب الفتي إصابة صغيرة في كتفه الأيسر لكن المشكلة كانت في أنه قد وقع في الأسر.

في معسكر الأسر جرد السجان روحه من حلم العودة إليها فهان الأمر عليه بعد ذلك عندما جرد بدنه من ملابسه وأوسعه

ركلا بالأحذية وضربا بكعوب البنادق. غير أنني أجد لزاما علي أن أقول الآن وليس فيما بعد أن سجانه لم يكن فظا أو جبارا أو قاسيا لكنها العادة أن تسير الأمور على هذا النحو والمنوال ليس أكثر وقسوة السجان في الغالب تخفي خوفه من الأسير نفسه.

شهر أو ربما شهران وتغيرت الأحوال فعرف أن الحرب وضعت أوزارها. فلقد تم نقله من المعسكر المؤقت الذي كان يقع خلف الخطوط بمسافة صغيرة إلي سجن بعيد دائم كان يبدو أنه أكثر قدرة علي استيعابه فترة طويلة للغاية فقد كان يشعر أن هذا السجن سوف يفضي به إلى النهاية. نعم انتهي بالفعل التعامل الحاد والعنيف معه من قبل سجانه أو فلنقل قلت مساحة هذا العنف وهذه الحدة إلا أن الرتابة وثبات وتيرة اليوم كالأمس وقبل الأمس جعلته يتأكد من أنها هي النهاية.

لم ينل من هذا الشعور الخانق إلا الخبر بالسماح لهم باستقبال بريد الأهل والأحباب والسماح لهم بالرد عليه. وعندما وصل البريد إلي السجن طالعه السجان وفض بكارة كل الرسائل قبل تسليمها للأسري.

رأى السجان أن كل الرسائل كانت تحمل شوقا وحبا وخوفا وقلقا إلا رسالتها فقد كانت تحملها هي مشتاقة ومحبة وخائفة وقلقة. أدهشه أنها وحدها التي جعلت البريد يحملها بالكلية بدلا من أن يحمل كلماتها فصار يسأل نفسه كيف أصبحت هي الحبر فوق (أديم من ورق) سلم الرسائل لأسراه ثم جلس ينتظر رسالته هو إليها.

عندما فض بكارة رسالته هو الأخر لم يكن حينها يقوم بما تقتضيه القواعد العسكرية قدر ما كان يريد أن يعرف كيف ترد الأرض علي ماء النهر إذا ما جاء إليها بالخير وكيف تحلق الطيور في السماء وهي تنحني لخالق هذا الجمال وكيف يصلي الناسك من غير أن يرتل نصوص كتابه المقدس. غير أنه لم يرى في رسالته إلا رسما لعصفورين أحدهما في الظلام بلا أجنحة يزحف بقدمين نازفتين في اتجاه النور حيث العصفور الأخر وحول الاثنين نار تشتعل وفي البعيد عنهما تماما جنة مسورة وفاكهتها كلها محرمة. طالع رسالته وقال أتوني به فلما جاءه سأله لماذا رسمت لها ولم تكتب؟ قال له: ما أنا بكاتب ولا أجيد القراءة! فسأله كيف إذا قرأت رسالتها؟ قال له: جهل الأرض بعلم القراءة لا يمنعها من

مطالعة الخير في رسائل النهر ولا تحتاج الطيور للقراءة كي تنحني لخالق الجمال وهي تحلق بين السماء والأرض والناسك الحق يصلي بنصوص قد لا يقرأها في كتابه المقدس. ثم أدار له ظهره وعاد وحده إلى محبسه.

ولما كانت الحرب قد جمعت بين منتصر ومهزوم الفرق بينهما قد يكون طلقة هنا خابت وآخر أصابت هناك فلا المنتصر بذل روحا ضن بها مهزوم ولا المهزوم حرص على حياة يستفئ فيها تحت سيف منتصر وكلاهما كان له قائدا صرخ فيه عبر وسطاء بكلمة (هجوم) ثم جرى بعيدا ينتظر أنباء القتال. ولما كان في السجن تجاور محبس الأسير مع بيت السجان وضمهما سور واحد. ولما كان كلاهما الأسير والسجان لا يبغضان بعضهم البعض قدر بغضيهما لضيق السجن علي البدن وعشقهما لبراح تروح فيه الروح وتجئ ولما كانت السماء واحده تغطي ليلهما بالظلمة فيعتصم الأسير بالجدار الفولاذي وبالباب الحديدي وبحراسة السجان له ويعتصم السجان بالبندقية وبهمس الأسير وبخوفه منه فقد قرر السجان أن يكون هو الأسير ويكتب لها ويرد عنه فلغات العاشقين واحدة في أي زمان ومكان.

في بداية الأمر كان ينتظر رسائلها كي يرد عنه ثم صار ينتظر الرسائل كي يرد عن نفسه فكما للحرب نار ولنيرانها فراشات لا تستطيع منها الفكاك لو دنت كذلك للحب نار ولنيرانها فراشات لا تستطيع منها الفكاك لو دنت . أما الأسير فلقد ظل يقرأ دون أن يدرك قواعد علم القراءة وظل يرسم عصافير لا تجيد الطيران . وهي أحبت عاشقها العنيد الأسير في كلمات سجانه أكثر وأكثر .

وفي يوم بلونين علي الأسير وسجانه تم إبلاغ الجميع عن صفقة لتبادل الأسري . اللون الأبيض كان من نصيب الأسير فلقد علم أنه ضمن الصفقة وأخيرا سينظر إلى وجهها ثانية هذا الوجه الذي لولا أنه يشبه صورة طفلة وجدها داخل قلبه ولا يعرف متى دخلت إليه ؟ لولا هذا الشبه ربما كانت ملامحها ضاعت بين الكر والفر علي رمال تبتلع دماء من يسقط عليها ولا تحتفظ لأقدام السائرين فوقها بأي أثر . واللون الثاني لم يكن أسودا كان رماديا وكان من نصيب السجان الذي لم يحدد بعد هل عليه الفرح لفك قيد أسيره أم الحزن .

لقد كان يدرك أن جهله بما يجب أن تكون عليه حالته سببه أنه لم يكن السجان للأسير قدر كونه الأسير لها بل أنه الأسير الوحيد

الذي دعا الله ليلا ونهارا ألا يفك قيد أسره. في الأخير وقبل أن يتخذ قرارا بالحزن أو الفرح قال لنفسه: على الأقل سوف أربح رؤيتها بين المستقبلين للأسري سوف نلتقي بعد أن كنت دوما أقول (إن ضاق علينا المكان فلنلتقي خارج حدود جاذبية الكون فإن جاذبية الكون تحفظ للحياة اتزانها وتحفظ لطائر الموت صيده حتى يفيق. وإن ضاق علينا الزمان فلنلتقي بين نهاية الأمس وبداية اليوم الجديد في مساحة الحلم المستحيل).

في مساحة منزوعة السلاح محصورة بين حدين من الأسلاك الشائكة التي علقت بها بقايا ملابس وحاجيات للجنود لم يفصح شكلها عن انتمائها لأي جانب في هذه المساحة ترجل الأسير بجوار سجانه فكان الأسير يهتدي بخطو سجانه إلى الوطن والسجان يهتدي بدقات قلب الأسير إليها.

وكما كان بدأ الأمس في زحام الشارع الذي يأتيه الناس من كل حدب وصوب عندما لم يكتفي أي منهما بنظرة واحدة لوجه الأخر كي يحدد مكانه ولا يصطدم به أو تتعثر خطواته وتضطرب بل تبادلا معا النظرة الثانية والثالثة والرابعة حتى تعثرت خطواتهما

واضطربت وصار المارة يدفعونهما بعيدا عن دهشتهما واختيارهما بدأ اليوم أيضا في زحام أشد إلا أنهم هذه المرة كانوا ثلاثة .

وقفت هي قبالتهم معا وعينيها مثبتة على وجه الأسير وقلبها يحاول اختزال الشتات الأول والشتات الثاني في لقاء حار جدا بلا أحضان أو قبلات . والأسير ينظر إليها يراقب فعل الشتات الثاني فوق وجهها . وبينهما السجان الأسير يبحث لقدميه عن موضع ويحاول كسر الغربة عنها بتفحص كامل وجهها وجسدها ينظر إليها ولا ينظر إليه أحد .

أخذت تترنم بمقاطع مما كتبت فيكمل لها السجان الأسير ويصرخ الأسير : لم أكن يوما بقارئ . فتترنم بمقاطع مما كتب فيكمل السجان الأسير ويصرخ الأسير : لم أكن يوما بكاتب .

جرى الأسير اختفي من المشهد تماما راح يبحث في كل اتجاه عن طيوره وعصافيره لم يكن يدري أنها لم تبرح سجنه يوما ولم تطير أبدا إليها .

وبقيت هي قبالة السجان الأسير تهز رأسها بعنف وشدة في محاولة فاشلة لإعادة ترتيب الأفكار والناس والأشياء . إلا أنه وفي مشهد عادي جدا جذبها قومها إلي ما وراء أسلاكهم الشائكة

والسجان الأسير جذبه زملائه إلى ما وراء أسلاكهم الشائكة وبقيت بينهم مساحة منزوعة السلاح علقت بها بقايا ملابس وحاجيات للجنود لم يفصح شكلها عن انتمائها لأي جانب.

اسجد واقترب

كنت طفلا صغيرا عندما توضأت ووليت وجهي شطر قبلتي ودعوت الله أن يرسل لي مع أبي دراجة عندها جذبني الشيخ الطاعن في السن من كتفي الأيمن بعنف شديد وتتطاير رزاز من لعابه وهو يصرخ في وجهي قائلا: ما هكذا يكون الدعاء.

صدقت أنني لا أحسن الدعاء فسرقت الدراجة وطلبت من الله المغفرة.

ولما خلدت للنوم ليلا جاءني من أيقظني ومسح علي كتفي الأيمن وقال لي: إن الله غفر ذنبك رغم أنك لم تكن علي وضوء ولم تولي وجهك شطر القبلة عندما طلبت منه المغفرة.

بابا مبيعرفش يلعب

قضت ابنتي الصغيرة وقتا طويلا تشرح لي قواعد اللعبة وقبل أن تتهمني بالغباء فتح الله علي وفهمت. عندها صرخت وقلت لها: فهمتها ستشيرين إلى أي شيء وتقولين اسمه بالخطأ بعدها يجئ دوري فأصحح لك الخطأ لكن بخطأ جديد ومن يقول الاسم الصحيح يصبح (عليه واحد). حدثت ابنتي نفسها بصوت منخفض لكني سمعت حديثها وهي تقول: جعل اللعبة صعبة جدا عندما شرحها!

قلت لها سأبدأ أنا الأول ــ في أول الأمر رفضت لكنني قلت لها إن لم أبدأ أنا أولا فلن ألعب أبدا معك. كظمت غيظها وابتسمت في وجهي ووافقت على مضض وبدأنا اللعبة.

أشرت إلى أنفها وقلت هذه أذنك ــ قالت لا هي عيني.

أشرت إلي يدها وقلت هذه قدمك ــ قالت لا هي رأسي.

أشرت إلي ضفائرها وقلت هذا فمك ــ قالت لا هي ذقني.

أمسكت فستانها وقلت هذا قلمك ـــ قالت لا هو فستاني فانفجرت ضاحكا وصرخت (عليكي واحد) ثم بدأت هي .

أشارت إلي صورة حديقة معلقة علي الجدران وقالت هذا سجن ـ قلت لها نعم فهو محاط بسور وعلى السور حرس . نظرت إلي بغضب وقالت : (بابا العب بجد) .

أشارت إلي شيخ بنفس الصورة جلس علي الأرض وأسند ظهره إلى جذع نخلة وقد أمسك بيمناه كتاب لا يقرأ فيه وقالت هذا تاجر ـ قلت نعم وكتابه هو بضاعته . نظرت إلي بغضب أشد وقالت : (يووه وبعدين يا بابا) .

أشارت إلي قط داخل قفص بنفس الصورة وقالت هذا أسد ـ قلت لها نعم ونحن من زرعنا له الأنياب والمخالب . استشاطت غضبا هذه المرة وقال : (والله هامشي) .

أشارت إلي فريسة بنفس الصورة مقيدة بالحبال والسلاسل وقالت هذه مدينة ـــ قلت لها نعم ومثلها كل المدن والقرى ببلادي .

بكت ابنتي وجرت إلي أمها وهي تصرخ (بابا مش كـويس ـــ بابا مبيعرفش يلعب)

ذكرى ميلاد مباغت

لأول مرة يتذكر ذكرى يوم ميلاده قبل حلوله بيومين كاملين . . راودته رغبة في الاحتفال به هذا العام علي غير عادته . . . أحضر بعض الزينات الورقية والبالونات ووزعها بشكل متناسق علي جدران غرفته الصغيرة في الفندق الشعبي الذي يسكنه منذ خمسة سنوات .

في ليلة عيد الميلاد جلس علي الكرسي بوضع أقرب إلي الاسترخاء وأخذ يطالع الزينات والفاكهة والمشروبات الباردة (وتورتة) عيد الميلاد التي وضعها علي الطاولة سيطر عليه إحساس أن المشهد لايزال ناقصا .

أغمض عينيه وعاد إلي الوراء محاولا استحضار ما يكمل به المشهد الحالي . . راجع كل محطات حياته من الأقرب للأبعد للوصول إلي محطة يعيد منها تشكيل الحياة للوصول إلي مشهد حالي مكتمل .

فجاءه وقفت ذاكرته عند ذلك اليوم الذي كان يجلس فيه إلي مقهى زهرة البستان قبالة الأديب الكبير ــ صاحب المنبر الإعلامي

الهام جدا ــ الذي لم يكن يعرفه ومن هـذه المحطـة بـدأت محاولتـه لإعادة تشكيل الحياة.

جعل نفسه يعرف الأديب الكبير وقد قدم له بعضا من أعمالـه التي أعجب بها الأديب الكبير وسـخر إمكانيـات منـبره الإعلامـي الهام جدا لنشر أعماله حتى صار صاحبنا ذائع الصـيت ويشـار لـه بالبنان وفي واحده من الحفلات التي كانت دائمـا تقـام علـي شـرفه تعرف علي فاتنته وتزوجها وأنجب منها ولدا وبنتا كبر الولد وتزوج ست الحسـن والجمـال وكـبرت البنـت وتزوجـت الشـاطر حسـن وأصبح لديه الكثير من الأحفاد.

وفي يوم عيد ميلاده اجتمعـت كـل العائلـة للاحتفـال بـه كمـا تعودت كانت كبري حفيداته تراقصه عندما تعثرت خطواته فسقط فوق الطاولة التي كان عليها الفاكهة والمشروبات الباردة (وتورتـة) عيد الميلاد محدثا جلبة شديدة جعلت ساكن الغرفة المجاورة لغرفتـه في الفندق الشعبي الذي يسكن فيه منذ خمسة سنوات يـدخل عليـه مسرعا وهو يصيح : خيرا يا أستاذ محمد . . . . ماذا حدث ؟ هـل أصابك مكروه ؟ ساعتها كان الأستاذ محمد يحـاول الوقـوف علـي قدميه بينما عيناه تبحث في الغرفة عن أحفاده.

عقارب الساعة تعود للوراء

وقفت في صباح يوم بارد في الميدان أرقب المئات أو العشرات أو حتى الآحاد من البشر الذين يسرعون الخطو لمقاصدهم التي يتحدون فيها زحاما ويتشابهون فيها صياحا لكنهم لا يتألفون.

ومن السهل على أي أديب مجتهد ــ حتى لو كان مبتدأ ـــ أن يخرج من هذا الزحام بنص جيد يلقي به على طاولة أي لجنة تحكيم ويفوز بالمركز الأول حتى لو كان (الأول مكرر).

لكنه كان قد مرت بي ثلاثة أشهر وأنا تطاردني كلمات (الغايش) في صحوي ونومي وتمحو بمحاة خشنة وقاسية كل ما أكتبه قبل أن تتكسر كل اقلامي عندما قال لي: (يا هيمه أنت كاتب مجتهد مثل محفوظ ولست موهوباً مثل عبد القدوس).

وقبل أن تزرع كلماته بيننا مساحة من صمت قد لا تزيح ستائره ذكريات أعوام وأعوام بيننا وشوق لحظة كان كصحراء الفراق التي قضت عمرها تستجدي مطر اللقاء المشتهي عاد وقال بصوت خفيض: (لكني كما تعلم بحبك وبحب كل شغلك جدا)

لذلك غيرت مكان وقوفي بالميدان وأغلقت زاوية الرؤية قليلا أو كثيرا حتى أنني لم أستطع أن أبصر سوى طفلا لم يكن في الأصل ضمن من يعبرون الميدان هذا الصباح.

الفقر لم يترك لهذا الطفل من اللُعب إلا ما صُنِع من تراب الشوارع القديمة الفقيرة بعد خلطة بماء آسن أو بقايا أدوات المطابخ الفقيرة كاليد الخشبية لسكين مكسور أو حتى نصل السكين الصدأ وكوب معدني قديم زهدت فيه حتى الشفاه الفقيرة.

كل ممتلكات هذا الطفل كانت تنتمي لعالمه بالشوارع القديمة الفقيرة إلا أحلامه فرغم أن سقف هذه الأحلام كان يهوي بسرعة أو ببطء يوما بعد يوم إلا أن هذه الأحلام ظلت تنتمي له طفلا لم يكبر بعد ويبصر بالبصيرة ما لم يبصره بالبصر . . . قبل أن يبصر القيود التي تكبله إلى الشجرة العاقر العتيقة على ضفاف النهر الذي جف مائه فيتحول إلى راهب في معبد لا يزوره الرب أبدا.

من مكاني بالميدان وفي خلال فترة من الزمن ـ ربما كانت بعض ساعة أو ساعات أو عمرا كاملا ـ ومن زاوية الرؤية التي حجبت زحام المئات أو العشرات أو حتى الآحاد شاهدت ـ وما أكثر ما شاهدت ـ شاهدت الطفل يُنتزع من طفولته قسرا ومبكرا جدا يوم

زُج به إلى العمل في العطلة الدراسية ليشتري لنفسه طاولة خشبية يستذكر عليها دروسه المدرسية عندما يهل العام الدراسي الجديد ورأيته وهو يغادر هذه الطفولة تماما يوم أن ضمته إلى صدرها وقبلته معلمة الحساب الشابة ــ ذات الرائحة الأنثوية النفاذة والتي كانت تمتلك دفء خاص بجسدها ــ لأنه كان التلميذ الوحيد الذي أجاب عن جميع أسئلة الاختبار الشهري بلا خطأ واحد .

ولدعوة أم ناسكة فُتِحت لها أبواب السماء كانت هجرته من الطفولة إلى مراهقة كالمحفة البيضاء ليلها كنهارها سرها كجهرها . تعلم في المراهقة الحياة فوق خط ناي حزين يعبر المسافة بين حب الله وعشق البلاد في :

دمعة الفتاة لفراق الفتي . . .

في بسمة الجد لمولد حفيده الجديد . . .

في خشوع الشيخ في ركعتي الضحى . . .

في خطابات الرجال الذين أمعنوا في الهجرة . . .

في عشق الفتاة التي أدرك مبكرا جدا أنها ليست له فعندما لمس ثوبها وشم عطرها انتبه إلى أن الثوب والعطر غاليين الثمن جدا

فقال لنفسه : ليست هي لو كانت هي لكانت فقيرة مثلي أو كنت أنا غني مثلها فالحياة ليست طاولات صُفت بعد العصر في ظلال (السيسبان) ليشرب فوقها العاشقون عصير الليمون المثلج دون أن يطالبهم (الجرسون) بالحساب . فحملها في القلب عشقا لا يغادر ولم يشقي به لأنه لم يضعها يوما في أحلامه .

فجأة علا ضجيج الميدان لعبور امرأة أربعينه في كامل رونقها . كان رونقها كالمشمش نادرا وقصير العمر ولاذع المذاق وكان كالبنفسج جميلا لكنه يثير في النفس حزنا يتسلل من العين للقلب .

ولما أمعنت في وجهها النظر وجدتها هي الفتاة التي عشقها وأدرك مبكرا جدا أنها ليست له وقد كانت تعبر الميدان في طقسها اليومي الجنائزي بحثا عنه أو ربما حزنا على فقده وخلو أحلامه منها .

الغريب أنه في نفس اللحظة وكعادته كل صباح كان يسير بجوارها غير أنه لم يكن أربعيني مثلها بالكاد تجاوز فقط مراهقة عمره إلى شبابه والأغرب أنه لم يكن أبدا ينظر ناحيتها ــ لعلها كان خائفا من أن تحوله أحزان عينيها الكنسية إلى تمثال شمعي لرجل يبكي وهو يحثو أمامها على ركبتيه .

وفي شبابه وما تلاه ظل يحمل أحلامه المستحيلة عشقا في قلبه ولا تسع إليها خطواته رسم ملامح الفارس وفي زحمة العسس الذين سكنوا حتى تحت جلده لم يكن يوما فارسا . . . اختزن ملامح وحس الفنان ولم يداعب الفرشاة يوما ولا الألوان . . . عشق الكلمة ولم يعتلي المنصة انحنى كثيرا لتقبيل يد الممكن عله يوما يصل للمأمول والمستحيل فكان . . . . . لكنه لم يكن أبدا كما يريد .

أكل عليه الزمن حتى شبع وشرب منه حتى ارتوى وعندما فك الزمن قيده زهدا فيه أخرج من دفاتر عشقه القديمة الفارس والفنان والأديب ووقف في صباح يوم بارد في الميدان يرقب المئات أو العشرات أو حتى الآحاد من البشر الذين يسرعون الخطو لمقاصدهم التي يتحدون فيها زحاما ويتشابهون فيها صياحا لكنهم لا يتألفون فقد كان من السهل عليه أن يخرج من هذا الزحام بعمل جيد يلقي به على طاولة أي لجنة تحكيم ويفوز بالمركز الأول حتى لو كان (الأول مكرر) .

ولم يبقي سوى لحظات ويمر به (الغايش) بعدها حتما سيغير مكان وقوفه بالميدان وسيغلق زاوية الرؤية قليلا أو كثيرا حتى أنه

لن يستطع أن يبصر سوى الطفل الذي لن يكـن في الأصـل ضـمن من يعبرون الميدان لن يبصر سوى نفسه في زحام الميدان .

بصمات على جدار ثلجي

عبث وجهي وضاق صدري وسكن بين ضلوع قلبي حزنا عندما تملكني شك في أنه لم تتغير ملامح المكان كثيرا عبر الزمن ولم ينجح الطلاء الجديد في تغيير إحساسي القديم به ربما لأنهم قاموا بالطلاء دون معالجة للثقوب التي صارت شروخ وشقوق.

سنوات عديدة كنت أظن نفسي والمدرسة عشناها عمرا قبل أن أعود إليها مدرسا للتربية الفنية لكنني ومع الخطوة الأولي تيقنت أن هذه السنوات هي التي عاشت عمري وعمر المدرسة فالساعة كما هي تشير إلي ما قبل السابعة والنصف صباحا بدقائق قليلة والمكان كما هو أرض الطابور بفناء المدرسة والحدث لم يتغير ـــ أنا في وسط الفناء زائغ العينين والنظرات مشتت شارد الذهن أنتظر طابور الصباح.

ربما تغيرت أشكال ملابس التلاميذ وأشكال حقائبهم إلا أن ألوان الملابس لاتزال باهتة والحقائب لازالت تحمل نفس الكتب. ربما تغير مظهر المدرسين لكن الجوهر لا يزال كما هو. حتى ناظر المدرسة رغم أنه لم يعد يحمل نفس (الكرش) الذي كان يتدلى من

أسفل صدره حتى أعلى حزام بنطاله إلا أنه كان يحمل في يده نفس العصا وفي عينيه نفس النظرة التي تخلو تماما من الود.

فكرت بجدية في مغادرة المدرسة قبل بداية اليوم الدراسي الأول ــ تماما كما حدث منذ ما يزيد على عشرين عاما ــ وعندما اقتربت من الباب قرع أستاذ (خير الله) وكيل المدرسة الجرس فاسرع (عم حسن) وأغلق باب المدرسة. فكرت ساعتها في القفز من فوق السور خاصة أنني كبرت وأصبح السور صغيرا بالنسبة لي إلا أنني تذكرت كيف ضربني أبي ضربا مبرحا عندما فعلتها منذ ما يزيد علي عشرين عاما فخفت وعدت إلى الطابور .

تبادل التلاميذ تقديم فقرات الإذاعة المدرسية بينما كان الأستاذ (محمود) مدرس التربية الرياضية يصرخ في وجوه التلاميذ كي تستوي صفوفهم ساعتها كنت أنظر يمينا ويسارا وأعدل من وضعي.

وقبل انتهاء الطابور وصعود التلاميذ إلي فصولهم أمسك الناظر (بالميكرفون) وبدون تهنئة ببداية العام الدراسي الجديد دعا السادة المدرسين إلي اجتماع في (الفسحة) ثم وبإشارة من العصا في يديه تحرك كل واحد منا بتلاميذ واحد من الفصول كلا إلى فصله.

وعندما مررت ــ أثناء مرافقتي لتلاميذ فصلي ــ بباب حجرة التربية الموسيقية تجنبت النظر إليها حتى لا أراني داخلها وأنا لاأزال أبكي منذ ما يزيد على عشرين عاما عندما صفعني الأستاذ (محمد السعودي) أمين المكتبة على وجهي لما رآني داخل الحجرة وأنا أقبل خد زميلتي في المرة الوحيدة التي لم أحكم فيها غلق الباب وراءها .

بدأ اجتماع (الفسحة) وأخذ كل منا يقدم نفسه للأخرين بالاسم والمادة الدراسية التي سيقوم بتدريسها ولم تكن لدي أي رغبة في متابعة أي من الزملاء أو التعرف على أي منهم غير أنني انتبهت لصوتها فرفعت رأسي وتعلقت عيناي بملامح وجهها وعدت إلي الوراء منذ ما زيد على عشرين عاما عندما كنت أقبلها في حجرة التربية الموسيقية .

عندها تهلل وجهي واتسع صدري وقفز قلبي بين ضلوعه ــــ كم كان جميلا أن ملامح المكان لم تتغير كثيرا وأن إحساسي به كان كما هو رغم الطلاء الجديد .

الحيـاة للأمــوات

لا أعرف لماذا عندما حاولت إقناعهم بأنني لست مريضا أثبـت لهم من حيث لا أدري أن حالتي (متأخرة جدا)؟ وأن المرض تمكـن من كامل الجسد والروح !

على ما يبدو أنهم عرفوا أن ذاكرتي لاتـزال تحمـل صـورا مـن طفولتي وأنني أحتفظ بداخلها ببعض من صور حبيباتي القـديمات والاكثر من ذلك أنهم عرفوا أنني أفرح وأحـزن . . أحـب وأكـره . . أغني وأبكي . . أكر وأفر . . أخاف وآمن . . . والأكثـر مـن ذلك أنني لازلت أحلم.

معذرة . . . . ماذا كنت أصنع في حمـرة الخجـل الـتي ظهـرت علي وجهي عندما رددت سائلا دون إجابة مسألته ؟ وكيـف كنـت أخفي دمعا انهمر عندما اعتصر الحزن قلبي ؟ أو أيـن كنـت أواري تقطب الجبين وعبوس الوجه لما غضبت ؟ .

المهم أنهم أصروا علي التداوي فقلت في نفسي : لا بـأس فـلا سلطان لطب دون وعد بالشـفاء ولكـن العجيـب انهـم اسـتطاعوا الحصول علي وعد كتابي ومدموغ بختم سيدي بالشفاء ـــ فلـديهم

قدرة علي الحركة والتواصل أعلي مما أملك ـــ ولم يعد لدي من مفر .

رفعوني علي سرير بمنتصف غرفة العمليات واجتمع حولي الأطباء . لم يكن المخدر يسيطر علي كامل الجسد عندما بدأوا العمل نعم لم أكن أشعر بألم من استعمالهم ادواتهم من (مشارط ومقصات وإبر) لكني كنت أعرف علي وجه اليقين أين وماذا يفعلون ؟

ساعة أو نحو الساعة ثم ربط أحد الأطباء علي كتفي وقال : لقد انتهيت عفوا لقد انتهينا مبروك قم (العملية نجحت)

قمت عن سريري بشكل سريع للغاية ولكن جسدي كان بطيئا للغاية فبعد أن زرعت كامل الغرفة ذهابا وايابا كان جسدي لا يزال نائما علي السرير الغريب أنني كنت أشعر بتحسن رهيب وادركت عندها إنني عندما حاولت إقناعهم بانني لست مريضا كنت بالفعل مريضا جدا وحالتي كانت (متأخرة للغاية) وأن المرض كان بالفعل متمكنا من كامل الجسد والروح .

٦٢

ألبوم بلا ذكريات

كان كلما غدر به صديق أو خان عهده حبيب أو جحده قريب يحزن ثم يحزن ثم يحزن . . . ثم يصنع الحزن قرارا بأن يأتي علي ألبوم الصور والذكريات ويخرج صور الصديق الغادر أو الحبيب الخائن أو القريب الجاحد ويتخلص منها ثم يبدأ في تصفح الألبوم من جديد . . . دائما كان يبقي داخل قلبه شجن فهؤلاء الذين لايزالون في الألبوم يذكرونه بمن غادروه حتى جاء اليوم الذي شعر فيه بأنه ولد من جديد ــ لا له ولا عليه ولا حزن بعد اليوم سيعتصر قلبه ــ فلقد تصفح ألبوم الصور بلا شجن وبلا اجترار للذكريات وبلا أي حزن . . . لقد كان الألبوم اليوم خالي تماما من الصور .

٦٣

لم يستطع معهم صبرا

هو لم يتجبر لم يتكبر كان يلملم شتات المدينة يبتني حولها سورا يحد من سفر أبنيتها إلي الغربة يزرع حربته في قلب الكراهية شجر سيسبان على ضفاف النهر .

هو لم ينكر ربهم لكنه أنكر عليهم أن يحبونه ويكرهون المدينة فيزرعون طولها وعرضها يتامى وأرامل وثكلي بأخاديد يحفرها الدمع على صفحة الوجه كان ينكر أن يقدروا الرب حق قدره وتضيع بينهم أقدار الرجال .

لقد كان يدرك أنهم لم يعرفوا الرب حق المعرفة فلماذا ينحني لهم ويقتل الغلام أو يحدث في سفينة الفقراء خرقا أو يبني جدارا في معبد سيخاصمه الرب .

ثم أن المدينة كانت كل فرحه وكل عشقه وكل حزنه فكيف يحدث لهم في سورها ثقبا تهرب منه فراشات الروح لتخطفها نيران أشعلوها للناجي من سجن حربهم وتدخل منه الأفاعي .

لقد كانت المدينة في مبتدأها بعضا من الريح التي حملت تلالا من الرمال الساخنة إلى عينيه وإلى المسافة بين رداءه والبدن وهو يعبر الصحراء بحثا عن محبوبة خضراء . . . كانت بعضا من المطر الذي اغتسلت به عينيه واغتسل به الجسد فاستحالت الرمال إلي خبز وحَّب وعنب اقتادت عليه وبه طيور الشمال التي جاءت إلينا بحثا عن الدفء .

أخذت المدينة منه ومنحته وكبر وكبرت حتى صارت عشقه وصار فارسها صارت جغرافيتها أسماك ملونة تسبح في أوردته وشريانه وصار تاريخها لون البشرة في جسده وعمق الصوت في حديثه ونبض الحب في قلبه .

لكنهم تسللوا إلي القرار في لحظة مستحيلة طال فيها انتظار عابد ناسك جلس بعد صلاة الفجر ينتظر شروق الشمس ليؤدي ركعتي الضحى وكتبوا الحرب قدرا علي جبين المدينة .

أشعلوها بين الحق الذي ينتظر القوة حتى يبين ويقيم بيننا مملكته والقوة التي تنتظر الحق حتى تكتسب منه نبلها المشتهي ومجدها المبتغى .

أوقعوا في حبائلها الأب الذي كان ينتظر الابن كي يطلعه على سر البداية عله يكمل ما انقطع ويصله والابن الذي جاء بعدهم وظل ينتظر الأب كي يطلب منه سر الطريق إلى حسن الخاتمة وكفى.

أقاموها بين الأسئلة التي تستجدي الأجوبة كي تصبح أسئلة مشروعة وتستريح وبين الأجوبة الملقاة علي قارعة الطرقات التي لا يحفل بها أحد وقد ضجت من كونها أجوبة بلا أسئلة مستباحة وداعرة كغانية أسندت ظهرها لعمود النور وأشعلت سيجارة تنفث دخانها رغبة متوحشة في صدور الذئاب.

لم يشأ أن يترك المدينة لهم ويطير إلى القمر حتى قبل أن يصبح ضوئه أصفرا وشحيحا حزنا عليه لما أوغل في التيه أو يطير إلى الشمس لأنه لم ينسي لها يوما أنها فضت بكارة سره عندما صلي الفجر صغيرا في جماعة ثم خرج من مصلاه يتسلق الجدران إلى مخدعها.

نظر شرقا حيث تولد الشمس وترحل عنه ألما ونظر غربا حيث تذهب الشمس لتغيب وتموت كمدا فلم يجد أفضل من المنتصف بينهما لم يجد أفضل من مدينته.

ورغم أنهم كادوا أن يدفعوه إلي سكني السماء التي ينتظر سكانها أهل الأرض كي يتعلموا منهم سر الأسماء إلا أنه تشبث بأرض المدينة التي ينتظر سكانها أهل السماء ليأخذوا عنهم اليقين بمن علمهم الأسماء .

كانت حربهم سحرا أسودا قرأوا فيه كل الكتب المقدسة بالمقلوب كتبوا طلاسمه بدماء المسافر الذي كان يحلم فقط بجدران أربعة وبرائحة عرق الفتاه التي طال انتظارها للمسافر علي قارعة الطريق .

كانت حربهم سحرا أسودا أعيي كل الشيوخ الذين سكنهم الشموخ وكل الشيوخ الذين ملأتهم الشروخ لكنه حاصره وحاصر الساحر أوقفه عاري الظهر بين ذكرياته والأب الذي عاد من الميدان بندبة في الوجه وصدر خالي من الأوسمة وبين ذكرياته والابن الذي رسم المدينة صدر أم ممتلئ وكأس كبيرة من المثلجات وباقة أزهار ليست كنسية قبل أن يصفعه معلمه علي وجهه لأنه قبل يد زميلته .

صرخ فيه بالخروج راوده الساحر علي الخروج من بـاطن أرض المدينة لكنـه خـاف رعـدة البنفسـج وتسـاقط أوراق الربيـع خـاف الجفاف وعطش الصبار علي قبور المحبين .

صرخ فيه بالخروج رواده الساحر على الخروج من سماء المدينة لكنه خاف رحيل الطير دون عودة فسماء بلا طير كليل بـلا همـس سجن فسيح وقبض على الريح وضياع العشق وخلود التباريح .

صرخ فيه بالخروج راوده الساحر علي الخروج مـن البحـر ومـا أوهن (ذاكرة البحار) فاحكم قبضة يمناه علي سـيفه ويسـاره علـي سرج خيله وطاردهم حتى شـطوط الرحيـل دون درع دون قـارب للنجاة دون وعد بالعودة .

ما أخطأ البحر عندما أخرجهم سالمين فلقد أسلمهم للتيـه ومـا أخطأ البحر عندما حبسـه جسـدا فلقـد رده علينـا أسـطورة عشـق للمدينة لا تموت .

صورة معلقة على جدار مقوض

عندما كان قوتي أقل من جوعي لم أحلم بمائدة الأغنياء أجلس إليها وحدي حتى يكتسي العظم لحما وتتدلي البطن وتترهل ويبرز من صدري ثدي وتعلو صفحة الوجه فوق العينين. حلمت (بأبي ذر الغفاري) يمنحني صوته أدافع به عن فقراء مدينتي حلمت بمنصة قضاء اعتلاها (ابن الخطاب) ليسقط حد السرقة عن الجائع.

عندما كانت قوتي أضعف من سوط الجلاد الذي رسم به صورة البلاد ممزقة فوق ظهري لم أحلم بأعواد المشانق يتأرجح عليها جسد الحاكم وكبير العسس وشهود الزور (ويهوذا) الذي أنكر المسيح ثلاثا قبل أن يصيح الديك. حلمت ببياض ثورة (غاندي) وبيد (مانديلا) تمتد إلي يد سجانه حلمت بموعظة الجبل.

عندما كان مطر الشتاء أقوي من قدرة سقف بيتنا الخشبي علي حمايتنا منه حتى أن أمي غيرت مكان (فرشة) نومي أنا وإخوتي ثلاث مرات وفي الأخير نمنا تحت السرير الوحيد الموجود بالغرفة وظلت هي مستيقظة تبكي وتدعو الله كي يتوقف المطر. لم أحلم

بقصر بعيد عن شارعنا القديم به مدفأة لليل الشتاء حلمت بصيف ربيعي طويل للشارع كله.

عندما وقف فينا الحليم حلمت أن يغضب... عندما وقف فينا الأبكم حلمت أن ينطق... عندما وقف فينا الجاهل حلمت أن يعلم... عندما وقف فينا السارق حلمت أن يقنع... عندما وقف فينا القاتل حلمت أن ننسي... عندما وقف فينا الخائن حلمت أن ينتمي... عندما وقف فينا الضعيف حلمت أن يقوي... عندما وقف فينا العاصي حلمت أن يتوب... عندما وقف فينا المظلوم حلمت أن يعفو... عندما وقف فينا الثائر حلمت أن يهدأ... عندما وقف فينا العبد حلمت أن يتحرر... عندما وقف فينا الحر حلمت أن يحب ويعشق.

دهر طويل والطفل في ظهر الفتي عريان لا يستره إلا سندس الجنة والأم حزينة لا تفرح إلا في جنازة الابن والأب يبكي ولا يرفع عينيه عن أديم الأرض والأخ يتناسى حتى ينسي والصبية تبيع حلمها بامتلاء رحمها بيوم جديد في عمر الفتى.

دهر طويل والحليم والأبكم والجاهل والسارق والقاتل والخائن والضعيف والعاصي والمظلوم والثائر والعبد والحر

يقوضون حائط المعبد . . . دهر طويل حتى تنبهت إلي أنني لم أغضب أنني لن أستطيع تعليق صورة الرب حتى علي حائط مقوض .

الزمن المتبقي صفر

رأيته أثناء محاولة طفل يسكن داخل الضمير العدو ليحذر سكان المدينة من جيوش الليل التي عقدت العزم على مداهمة مدينتهم واقتحامها بعد نصرهم على الجيش الذي انهزم لهم عندما نزل رماته عن الجبل طلبا للمغانم.

كان يمسك بيمناه فرشاة للرسم صغيرة وفي يسراه قوس قزح يغمس الفرشاة في ألوان القوس ثم يرسم علي صفحة الوقت إنسانا عاريا تدثر بورق الجرائد اليومية القديمة. تلك الجرائد التي لم تنقله إعلانات العقارات المعروضة للبيع بها من الموت في قبور الجنوب إلى الحياة في قصور الشمال. ولم تحمى تحقيقاتها الصحفية حول قوة أجهزة الاستخبارات في البلاد قلبه من اختراق رصاصة الغدر. ولم تحمى صور مزارع الأعناب والرومان والزيتون تحت (مانشيتاتها). بطون الصغار من الجوع.

تعانقنا لا كي نطفئ نيران شوق بل كي نتأكد من أن مدن الإسفلت ــ من فيض كرمها ــ تركتنا حتى الآن أحياء. تحدثنا عن الأمس الذي رسمنا فيه الأحلام وعن اليوم الذي قتلتنا فيه الأحلام أو قتلنا نحن الأحلام فيه وعن الغد الذي رسم حوله السيد سياجا من الخوف ثم رحل دون أن يقرأ علي الغد تعويذة الخروج أو يتلو عليه فاتحة الكتاب أو يحدث له في السياج ثقبا.

حدثته عن حلم بنص سردي يعانق (بورترية) لامرأة عارية لا تشي ملامح جسدها بما يحدها ويسقط عنها براح الانتماء لكامل الخريطة دون أن تصبح مستباحة أو مشاعا. فحدثني عن لوحة تعبيرية لسيد يقرأ نصا سرديا في حضور كل مخلوقات الله. نصا لا يفرق بين طائر في الهواء ولا سابح في الماء ولا ماشي في صحراء. اتفقنا أن أرسم المرأة العارية غير المستباحة بالكلمات وأن يكتب هو نص السيد السردي بالألوان.

ذهب وجمع كل الألوان كي يكتب نص السيد السردي الذي لا يفرق بين طائر في الهواء ولا سابح في الماء ولا ماشي في صحراء. وما إن لامست فرشاته الأحمر ضجت الكراهية وأغرت السفهاء أن يرموا الحب بحجارة صماء فأسقط من لوحة النص اللون الأحمر.

غمس الفرشاة في البرتقالي فطارد العسكر كل الثوار وأسلمت (سالومي) الثورة للسجان فأسقط من لوحة النص اللون البرتقالي. دنا قليلا من اللون الأصفر فنهره الحاكم وحال بينه وبين الغيرة علي من يملك وما يملك فالكل عبيد للحاكم دون عهود والكل ملك للحاكم دون عقود فأسقط من لوحة النص اللون الأصفر. حاول الكتابة بالأخضر فاستيقظ كل جراد الأرض فلما خاف على الولد الذي لم ينبت بعد أسقط من اللوحة اللون الأخضر. والأزرق دفء طارده البرد والنيلي خير حبسه السد والبنفسجي كان اليوم حزينا وكفيفا ولم يرتد بصيرا حتى بعد أن ألقي على وجهه بقميص الغد. وفي الأخير كتب النص بما تيسر له من ألوان فجاء النص أبيضا دون صفاء جاء النص خواء. بات نص السيد السردي الذي لا يفرق بين طائر في الهواء ولا سابح في الماء ولا ماشي في صحراء بات النص خواء.

ذهبت وجمعت كل مفردات اللغة وكلماتها المتاحة فكانت كثيرة جدا لم أستطع أن أحصيها. استبعدت منها المفردات والكلمات التي تحمل وجهين فصار من الممكن إحصائها. تجاهلت تلك التي تكمن فيها فخاخ التأويل فصار الإحصاء أسهل.

تناسيت القديمة والعقيمة التي لا تحمل الدهشة بين حروفها فصارت قليلة . غضضت الطرف عن المنحازة والمتحيزة التي تسكن بقاعا وتهجر آخري فصارت قليلة للغاية . رفضت تلك التي تجئ في الظلام خنجر غدر أو سيف مسموم أو سهم من قوس أعمي فاختفت مفردات اللغة وكلماتها جميعا . بات (بورترية) المرأة العارية التي لا تشي ملامح جسدها بما يحدها ويسقط عنها براح الانتماء لكامل الخريطة دون أن تصبح مستباحة أو مشاعا بات (البورترية) الحلم حلما مستحيلا ومستباحا .